

المحاضرة الأولى:

بدايات الاهتمام بالشعر الشعبي في الجزائر

تمهيد:

يمكننا تمييز توجهين رئيسيين للجهود المبذولة من طرف الباحثين الذين اتجهوا إلى جمع وتدوين ثم دراسة الشعر الشعبي دراسة تحليلية، وقد حظي الشعر بمكانة محورية في تاريخ العناية بمواد الثقافة الشعبية، فالمعروف أن هذه الثقافة في أغلبها ذات طبيعة شفوية- ومنها الشعر الشعبي- يتناقلها الأجيال شفاهة عن طريق الرواية، لهذا فمن الطبيعي أن تمر مثل هذه الدراسات بمرحلة الجمع والتدوين والتوثيق وتسجيل بعض الملاحظات. تليها مرحلة التصنيف والوصف والتحليل.

1- مرحلة الجمع والتدوين (نشر المدونات): تعود بدايات الاهتمام بالشعر الشعبي إلى منتصف القرن التاسع عشر على يد الفرنسيين، قصد التعرف على البيئة الشعبية الجزائرية، وانصب اهتمامهم بالشعر الذي يتناول وقائع الصدام المسلح بين الجزائريين والجيش الفرنسي، «واعتمده الباحثون الفرنسيون كمادة تصلح للكشف عن سلوك الإنسان الجزائري وردود أفعاله»¹، وهذا لاقتناع الباحثين الفرنسيين بأن الشاعر الشعبي كان يؤدي وظيفة المؤرخ في تناوله لمقاومة الجزائريين للاستعمار الفرنسي. كما أنهم اهتموا كذلك بالحقبة التركية، فجمعوا الأشعار التي تُؤرخ لوقائع الصدامات المسلحة التي وقعت جراء الحملات العسكرية التركية، كما اهتموا بالحروب التي كانت تقع بين المجموعات المحلية المشكلة للقبائل فيما بينها. وقد جمع هذا الشعر ونشر مترجما إلى اللغة الفرنسية، «نعثر عليه في الدوريات خاصة

1- عبد الحميد بورايو، الأدب الشعبي الجزائري، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007م، ص15.

المجلة الإفريقية أو في بعض المؤلفات»². ومن بين هذه المؤلفات والمقالات نذكر ما يلي:

1- قام الباحث الأمريكي هودقسون w.hodgson بتسجيل أقدم نصوص مدونة للشعر القبائلي، وهذا قبل الاحتلال الفرنسي للمنطقة ببضع سنوات³.

2- نشر الفرنسي أ.هانوطو سنة 1867 مؤلفا عنوانه: الشعر الشعبي في قبائل جرجرة **poesies populaire de la kabylie de jurjura**، صنف فيه الشعر القبائلي حسب مضمونه، «فخصص القسم الأول، وهو الجزء الهام من دراسته، للقصائد التاريخية والسياسية. وتناول في القسم الثاني بعض الشعر الغنائي وشعر الحكمة. وقدم في القسم الثالث بعض النماذج من الشعر النسوي»⁴. وكان تركيزه في الحديث عن موقف الجزائريين ورأيهم من الاستعمار الفرنسي في منطقة القبائل.

وقد استهل دراسته بقصيدة شعبية تصف رد فعل الأهالي عند سقوط مدينة الجزائر تحت ضربات المدفعية وهجوم العساكر على المدينة، واختيار مثل هذا النص يدل على الدوافع التي توجهه عناية الدارسين الفرنسيين بهذه الحقبة التاريخية، فبالنسبة إليهم يبدأ الشعر الشعبي من هذه اللحظة.

3- نشرت المجلة الإفريقية مقالات حول الشعر الشعبي في منطقة القبائل من تأليف رين. ل rinn.l و لوسيانى ج. د j.d luciani، وقد انصب اهتمامهما حول «القصائد التي قيلت حول ثورة المقراني، وبدا غرضهما السياسي واضحاً من خلال اختيارهما لنصوص تهجو من تزعم الثورة»⁵.

4- نشر الكسندر جولي Alexandre Joly في سنة 1900 مقالات عرف فيه بالشعر البدوي المتداول بين «البدو الرحل في بعض مناطق الهضاب العليا و الجنوب، وقد حاول تحديد أصنافه وقدم نماذج شعرية منه»⁶ قام بشرحها والتعليق

²-المرجع السابق، ص36.

³-أنظر،المرجع نفسه، ص38.

⁴-المرجع نفسه،ص38.

5-Rinn .l . deux chansons kabyles sur l'insurrection de1871.revue africaine.n311887.p55-71

⁶-عبد الحميد بورايو، المرجع السابق،ص39.

عليها، وقد ميز بين مجموعة من الأشكال الفرعية للشعر البدوي، مثل: القول، النم، القطاعة والرثوة أو المراثية... ويبدو هذا الباحث أنه الوحيد الذي لم يخضع بحثه للجانب السياسي والتاريخي، خاصة وأنه حاول إبراز الخصائص الشعرية عند شريحة واسعة من السكان هم البدو، كما أنه اهتم بالجوانب الجمالية للشعر البدوي، وهذا ما يعد سابقة في تاريخ الدراسات الشعبية.

5- و نشر فور بيقه **biguet faure** في سنة 1901 مدونة شعرية للشاعر الشعبي أبو عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي 1583-1677، تضمنت قصيدته المطولة المسماة "العقيقة"، «نسبة إلى وادي العقيق في الحجاز»⁷ وهي في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وتعد من الشعر الصوفي المتميز بمنظومته الرمزية، والتي نشرت بالجزائر مكتوبة باللهجة العربية مصحوبة بترجمة إلى اللغة الفرنسية.

6- وظهرت في سنة 1904 عدة مدونات شعرية، حيث عدت هذه السنة سنة ازدهار الشعر الشعبي، ومن بين هذه الانتاجات نذكر: كتاب "الديوان المغربي في أقوال افريقية والمغرب" لصونيك، وقد ضم قصائد ومقطوعات شعرية بعضها مجهول المؤلف وبعضها الآخر ينتمي إلى الشعر الغنائي لشعراء معروفين أو مجهولين.⁸

و«ظهر في نفس السنة كتاب "كشف القناع عن آلات السماع" لأبي علي الغوثي بن محمد»⁹، وقد اعتنى المدون بالشعر المغنى من طرف فرق الموسيقى الأندلسية والحوزي، ويميز بين الأشكال الشعرية المنتمية لكل من الأندلسي والحوزي والعروبي، كما قدم معلومات عن بعض الشعراء.

و طبعت في نفس السنة مجموعة شعرية عنوانها: "مجموع الأغاني والألحان من كلام الأندلس" ليافل ناثان إدموند **Yafil Nathan Edmond**. و نشر كتاب "مجموع أشعار قبائلية" لسي عمار بن سعيد بوليفة (1865-1931) ضم أشعار سي محند أو محند، وهورجل امتلك حظوة الموهبة ويعتد أكبر الشعراء في منطقة القبائل، والمكافح الذي يشرك أفراد شعبه الحياة المليئة بالغبن والأسى.

⁷-عباس الجراي،القصيدة ، الزجل في المغرب،مطبعة الأمنية، المغرب،ط1،1970م،ص604.

⁸-أنظر عبد الحميد بورايبو، المرجع السابق،ص46.

⁹-المرجع نفسه،ص47.

7- وقد ظهرت بعد هذه السنة في فترات متباعدة مدونات أخرى ككتاب: "الكنز المكنون في الشعر الملحون" لمحمد قاضي المولود سنة 1882م بالقلعة والمتوفي سنة 1942م بتلمسان. وفي نهاية سنة 1940 شرع محمد بخوشة في جمع الشعر الشعبي المعوف في تلمسان في الدواوين طبعها مطبعة ابن خلدون، وهي: ديوان بن مسايب (? - 1768)، وابن تريكي (1650-؟)، والمنداسي ولخضر بن خلوف. وكذلك ديوان قدور بن عاشور الزرهوني (1850-1938) وديوان بن سهلة. كما نشرت الشركة الوطنية للنشر ديوان الشاعر مصطفى بن براهيم.

كما ظهرت بعض الكتب المكتوبة باللغة الفرنسية مثل "الشعر الشعبي المغاربي ذي التعبير العربي الدارج" لمحمد حفناوي، و"انطولوجيا الشعر الشعبي الجزائري" لسهيل ديب.

2-مرحلة دراسة الشعر الشعبي ومناهج دراسته:

أ-الدراسة الميدانية: ويقصد بها التوجه إلى الميدان لجمع وتدوين مواد الدراسة من أفواه الرواة، بشرط أن يحدد الباحث طبيعة المنطقة التي يجمع منها مادته الأدبية، وتحديد جغرافيا، ويجد أن يكون الباحث منتما إلى تلك المنطقة حتى يتسنى له فهم اللهجة المتداولة وبالتالي فهم المادة الشعرية التي يجمعها، كما يمكن للباحث تقديم صورة شاملة عن الحركة الشعرية في المنطقة. وكنموذج عن هذه الدراسة نذكر دراسة أحمد لمين الموسومة ب: الشعر الشعبي في سيدي خالد(ولاية بسكرة) من 1850 إلى 1950، وعلاقاته بالتراث الثقافي العربي الإسلامي والتي كتبها باللغة الفرنسية:

Poésie populaire Algérienne a Sidi Khaled et sa région (W.Biskra-Algerie) de 1850 a1950 et ses relations avec la patrimoine culturel arabo-islamique.

هذه الدراسة هي عبارة عن رسالة دكتوراه تحت إشراف جون مولينو من كلية الآداب، جامعة إكس مرسيليا، سنة 1983. وتضمنت المعطيات الجغرافية والاجتماعية لمنطقة سيدي خالد بسكرة، بالإضافة إلى إحاطتها بالحياة الثقافية والأدبية للمنطقة،

وهذا في الفترة الممتدة من سنة 1850 إلى 1950. و تطرق الباحث فيها أيضا إلى وصف المدونة وتقسيمها وفق موضوعاتها، ثم دراستها موضوعاتيا.¹⁰

ب- الدراسة الفنية: وهي الدراسات التي ترصد الخصائص الشعرية بالوزن والقافية والإيقاع، كما تهتم بالبناء الشكلي للقصيدة. ومن نماذج هذه الدراسة نذكر الدراسة التي قام بها أحمد طاهر الموسومة ب: الشعر الشعبي الجزائري (الملحون): إيقاعه، بحوره وأشكاله. وهي عبارة عن رسالة دكتوراه، قدمت في جامعة السوربون بباريس.

قام فيها الباحث بمسح شامل للنظريات التي سبقته حول أوزان وإيقاعات وقوافي الشعر الشعبي في منطقة الغرب الجزائري بالتحديد، وقد وصل إلى نتيجة مبهرة، مفادها التمييز بين نمطين من الشعر من حيث الإيقاع والوزن والقافية، هما:

1- الشعر المقطعي Strophique، وهو متصل بالموشحات والأزجال الأندلسية، ومتطور منها، أو هو الصورة الشعبية لها.

2- الشعر القائم على التناظر الوزني Isométrique، وهو قريب من شكل القصيدة العمودية في الشعر العربي القديم.¹¹

ج- الدراسة السوسيوثقافية: وهي نوع من الدراسة التي تنظر في المعطيات السوسيوثقافية وتعتمدها لتفسير الظاهرة الشعرية في منطقة ما من المناطق لها خصوصياتها الاجتماعية والثقافية المفارقة لمناطق أخرى. ونموذجها ما قامت به الباحثة تسعديت ياسين في دراستها الموسومة ب: الشعر البربري والهوية،

Poésie Berbère et Identité, Qasi Udifella, héraut des Sidi Braham

قامت فيها بتتبع ودراسة الإنتاج الشعري لشاعر من منطقة القبائل الصغرى، وعدته ناطقا بلسان الجماعة الاثنية التي ينتمي إليها، وهي القبائل. كما أن الشاعر كان ينتمي إلى جماعة فرعية، هي جماعة المرابطين، الذين يمثلون تشكيلة اجتماعية لها

¹⁰- أنظر، عبد الحميد بورايو المرجع السابق، ص 50.

¹¹- أنظر، المرجع نفسه، ص ص 50-51.

وضعها الخاص داخل المجتمع القبائلي، وهي الخصوصيات التي استشفتها الباحثة من خلال أشعاره، كالتنشئة الدينية والتشعب بأفكار جمعية العلماء المسلمين، والنضال من أجل بسط أفكارها الدينية في المجتمع الجزائري.¹²

د- الدراسة التكاملية: هذا النوع من الدراسات استطاع الجمع بين الدراسات الثلاثة السالفة الذكر، كالدراسة التي قدمها الأستاذ مراد يلس شاوش الموسومة ب: الحوفي: الشعر النسوي والتقاليد الشفوية في المغرب، **Le Haufi :Poésie féminine et tradition orale au Maghreb.**

اتبع فيها الباحث الخطوات التالية:

الجمع الميداني للمادة الشعرية(الحوفي) في مدينة تلمسان. ثم تتبع التطور التاريخي لهذا النوع من الشعر الشعبي، حيث رصد أربع مراحل هي:

أ- القرن 09 م: بدأ المزج بين بعض الأداءات الصوتية المواكبة لبعض الطقوس السحرية بأداءات الموالم الوافد من المشرق.

ب- القرن 11م: نمو هذا الشكل بتأثير المسمط وعروض البلد الناشئ في المغرب الأقصى.

ج- القرن 13: تحدد كفن رجالي، وهو عبارة عن مقطوعات متفاوتة الطول، موضوعها الغزل.

د- القرن 15: استغل من طرف التجمعات النسائية في تلمسان، ليصبح فنا نسائيا.

ثم قام بدراستها دراسة آنية كشف من خلالها عن بنية هذا الشكل الشعري، الذي يعتمد على وحدات شعرية عشرية المقاطع، وتركيبه النغمي يقوم على خمس مقطوعات متميزة، معتمدا على النمط الرباعي. وهو يعمل على نقل معارف موروثية وفق مشروع إيديولوجي مركزي يسعى المجتمع لتلقيه للأطفال.¹³

¹²-أنظر، المرجع السابق، ص 51.

¹³-أنظر المرجع نفسه، ص 52-53